مُـدْخَل

الفلسفة والمجتمع

أ ـ الفلسفة:

(إن أجلَّ نعمة ينعم الله بها على بلد من البـلاد هي أن يمنحه فلاسفة حقيقيين)[1]..

حكمة نطق بها ديكارت «أبو الفلسفة الحديثة»، وهي ـ بلا ريب ـ صادقة ما دام الوصف ـ بالحقيقيين ـ قائماً: ذلك أن الفلسفة ـ كمنهج عقلي ـ حكمة في التفكير، ويقين في البحث، وخبرة في الحياة، وضرورة إنسانية يؤكدها الواقع والتاريخ.

ولكلمة «فلسفة» أصل تاريخي يشرحه «رابو برت» فيقول[2]: روى المؤرخ اليوناني «هيرودوت» أن «كريسس» قال «لسولون» لقد سمعت أنك جبت كثيراً من البلدان متفلسفاً: أي متطلباً للمعرفة.

واستعمل «بركليس» كلمة «الفلسفة» يريد بها الجد وراء التهذب، ومهما يكن من شيء فمنشأ الكلمة يُشعر بالاعتراف بالجهل والشوق إلى المعرفة، قال فيثاغورس ـ والأصح نسبته إلى سقراط ـ:

(الحكمة لله وحده وإنما للإنسان أن يجد ليعرف، وفي استطاعته أن يكون محباً للحكمة، توّاقاً إلى المعرفة، باحثاً عن الحقيقة).

---

(١) مبادىء الفلسفة ترجمة د. عثمان أمين ص ٤٨.

(٢) مبادىء الفلسفة ترجمة د. أحمد أمين ص ٦.

وهذا ما يدل عليه اشتقاق كلمتي «فلسفة وفيلسوف»، فإنهما مأخوذتان من «فيلوس» ومعناها محب، «وسوفيا» ومعناها الحكمة؛ فمعنى «فيلسوف» محب الحكمة. ومعنى «سوفوس» الحكيم.

وقد كانت كلمة «سوفوس» في الأصل تطلق على كل من كمل في شيء عقلياً كان أو مادياً، فأطلقوها على الموسيقي والطاهي والبحار والنجار. ثم قصرت بعد على من منح عقلاً راقياً، فلما جاء سقراط سُمي فيلسوفاً أي محباً للحكمة تواضعاً وتمييزاً عن السوفسطائيين» ا. هـ.

ولكنَّ الفلسفة ـ مع التطور الزمني ـ أخذت اتجاهات شتى تختلف من عصر إلى عصرٍ، ومن مذهب إلى مذهب، وقد اتفق أرسطو وابن سينا وديكارت على أن الفلسفة تشمل جانبين هما:

الجانب النظري ـ والجانب العملي.

وهما معاً المعرفة الكاملة والعلم الشامل.

ويشمل الجانب النظري العلم الطبيعي والرياضي وما بعد الطبيعة، وخص أرسطو «ما بعد الطبيعة» باسم الفلسفة الأولى والعلم الإلهي؛ لأن أهم مباحثها هو «الله» باعتباره الموجود الأول والعلة الأولى، ويشمل الجانب العملي الحكمة المدنية والحكمة المنزلية والحكمة الخلقية، أو المجتمع والأسرة والنفس.

وشبّه ديكارت الفلسفة بشجرة جذورها الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة) وجذعها العلم الطبيعي وأغصانها باقي العلوم، وهذه ترجع إلى ثلاثةٍ كبرى ـ في نظره ـ هي الطب والميكانيكا والأخلاق.

ولكن هذه النظرة الكلية إلى الفلسفة باعتبارها الأم الرؤوم التي تحتضن أبناءها ما لبثت أن تقلصت، وشهدت العصور الحديثة حركات انفصال متوالية، فانفصل علم الطبيعة على أيدي كل من جليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) ونيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٦). وتبعه علم الكيمياء على

يدي كلود برنار (١٨١٣ ـ ١٨٧٨)، وشهد القرن العشرين انفصال كل من علم النفس وعلم الاجتماع.

وخلال تلك الفترة تهاوت على الفلسفة الميتافيزيقية معاول هدم كثيرة ابتداءً من نقد العقل النظري للفيلسوف الألماني «كانت» (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤)، ووضعية أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) والتجربة الوجودية على أيدي كل من كير كجورد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) وهيدجر (١٨٨٩ ـ) وسارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، والصراع الطبقي والمادية التاريخية عند ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٩٣).

والواقع أن الفلسفة ـ كظاهرة إنسانية ـ متأصلة في أعماق النفس الإنسانية تدفع دفعاً قوياً إلى معرفة حقائق الوجود الكبرى، وما أصدق أرسطو حين قال[1]:

(فلنتفلسف إذا اقتضى الأمر أن نتفلسف، فإذا لم يقتض الأمر التفلسف وجب أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له)!.

* * *

ومن هنا أراني في حاجة إلى تقديم تعريف للفسلفة يتخطى حدود المذاهب، ويتجاوز واقع العصور بحيث يقترب من المفهوم العام الشامل.

وهذا التعريف يكمن فيما يلي:

الفلسفة هي البحث عن الحقيقة مطلقاً في الألوهية أو الطبيعة أو الإنسان بنظرة عقلية مجردة.

ويقوم هذا التعريف على ثلاثة أصول:

١ ـ البحث عن الحقيقة.

فالفلسفة بحث عن الحقيقة وليست هي الحقيقة بعينها، وهي روح

---

(١) أسس الفلسفة ـ توفيق الطويل ص ١٩٠.

وثابة، وحوار دائم، وتساؤل مستمر قد يصل إلى الجواب وقد يبقى محتاجاً إليه.

٢ ـ في الألوهية أو الطبيعة أو الإنسان.

فهذه هي موضوعات الفلسفة قد تجتمع وقد تنفرد، ولا تخلو فلسفة عنها، وعلى هذا فإن الذين يريدون أن يجعلوا الفلسفة كشفاً عن الإله ثم اتصالاً به ويعرفونها بأنها[١]:

(المحاولات التي يبذلها الإنسان عن طريق العقل وطريق التصفية ليصل بها إلى معرفة الله).

هؤلاء قد جروا واسعاً، كذلك فإن محاولة إخراج المنطق عن نطاق الفلسفة ـ هي قضاء على الفلسفة نفسها، وما كان أرسطو مخترعاً للمنطق وإنما هو واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلى الفعل ـ كما يقول الشهرستاني ـ[٢]: (وحكمه حُكم واضع النحو وواضع العروض، فإن نسبة المنطق إلى المعاني التي في الذهن كنسبة النحو إلى الكلام، والعروض إلى الشعر، وهو واضع لا بمعنى أنه لم تكن المعاني مقومة بالمنطق قبله فقومها بل بمعنى أنه جرد آلته عن المادة فقومها تقريباً إلى أذهان المتعلمين).

٣ ـ بنظرة عقلية مجردة:

وذلك لتمييز الفلسفة عن العلم التجريبي الذي يخضع لتجربة المعمل بملاحظاتها وفروضها وتحقيقاتها.

والتجرد ـ بحسب الطاقة البشرية ـ قد يكون قائماً على الحرية الفكرية، والفطنية الكاملة، واليقظة التامة، وقد يكون مغلفاً بهوى أو مطلساً ببدعة أو متأثراً بخرافة.

---

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام ـ دكتور عبد الحليم محمود ص ٢٤٥.

(٢) الملل والنحل ـ تحقيق محمد سيد كيلاني جـ ٢ ص ١١٩.

وتنال المذاهب الفلسفية حظها من الصدق بمقدار تجردها، وفي كلتا الحالين هي فلسفة صادفت الحق أو لم تصادفه!.

هذا وللموقف الفلسفي خصائص تميزه أجملَها أحد الباحثين في جامعة مكسيكو الجديدة في تسع هي[1]:

١ ـ إنه موقف قلق وحيرة ودهشة، فالفلسفة تبدأ بالقلق الذي يعتري الإنسان حين تصادفه ظاهرة تتطلب تفسيراً، وتصدر عن الحيرة التي تستولي عليه حين يجد مشكلة تنتظر حلاً، وتنشأ عن الدهشة التي تنتابه عند الشروع في التفكير وتغريه بحب الاستطلاع.

٢ ـ إنه موقف شك يرفع صاحبه فوق الاعتقاد التعسفي الذي يفتقر إلى ما يبرره، وبغير الشك المنهجي الذي ينشد المعرفة الحقيقية لا يكون تفلسف.

٣ ـ إنه موقف تأمل وتفكير، فمجرد مواجهة مشكلة لا يكفي لإيجاد موقف فلسفي بل لا بد من أن تثير المشكلة تفكير الإنسان.

٤ ـ إنه موقف تسامح وسَعه صدر، إذ لا يكفي أن يساور الإنسان شك بصدد معتقداته، بل يقتضي الموقف الفلسفي أن نصغي لكل رأي ونستجب لقول القائل: (متى اختلف عاقلان وجد كل منهما ما يتعلمه من قرينه).

٥ ـ صاحب الموقف الفلسفي يميل دائماً إلى الاسترشاد بما تشير به الخبرة ويمليه العقل، ومن أجل هذا اتّسم الموقف الفلسفي بالاستعداد لاستبدال الآراء والتخلص من بعض المعتقدات متى وجدنا في غيرها ما يبرر التسليم به.

٦ ـ إنه موقف ارتياب وتعليق للحكم، ذلك أن صاحبه يميل إلى أن يظل في ريب بشأن كل موضوع لا يجد دليلاً كافياً على صحته.

---

(١) أسس الفلسفة ـ توفيق الطويل ص ١٢٥ بتصرف.

٧ ـ إنه موقف عقلي يرتفع فوق الشك الهدام الذي يعرقل النظر العقلي ويشل طلاقة التفكير.

٨ ـ إنه موقف يتسم بالمثابرة وهو جهد عنيد في سبيل التفكير الواضح الذي يكشف الحجب ويرفع الأستار، إذ التأمل الخاطف أو الشك المنهجي المؤقت لا يكفي لجعل صاحبه فيلسوفاً.

٩ ـ **أنه موقف يتجرد عن العاطفة والانفعال ويرتفع فوق مؤثرات الحب والكراهية.**

تلك هي خلاصة الخصائص التي يتسم بها الموقف الفلسفي، وهي تؤكد ما ذهبنا إليه في تعريفنا للفلسفة في إطارها المنهجي العام.

بقيت نقطة أثارت جدلاً كثيراً وهي أين نشأت الفلسفة؟. ومن هم أربابها الأول؟.

والناس فريقان:

فريق يعتبر طاليس الإيوني (٦٢٤ ـ ٥٥٠ق.م) أول فيلسوف نظر في الكون نظراً عقلياً.

وفريق يرجع بالفلسفة إلى أصول شرقية في مصر والهند.

ولكل فريق أنصار ولكل منهم مرجحات، وقد غالى بعضهم فزعم أن الفلسفة اليونانية خلقها اليونان خلقاً وأنشؤها إنشاء فهي وليدتهم وربيبتهم[١].

ولكن الإنصاف ما قاله «هنري توماس»[٢]:

(حب الحكمة كالشمس تماماً بزغ نوره في الشرق، ثم ما لبث ن انتشر تجاه الغرب، وليس في وسعنا أن نفهم فلسفة اليونان فهماً تاماً إلاّ إذا عرفنا أنها مدينة للفلسفة ـ أو على الأقل ـ على صلة بالفلسفة في مصر وفارس والهند والصين وفي العهد القديم).

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية ـ د. أحمد أمين، د. زكي نجيب محمود ص ١١.

(٢) أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم ـ ترجمة متري أمين ص ٦٧.

وهذا ما يرجحه رحلات فلاسفة الإغريق إلى الشرق من أمثال طاليس وفيثاغورس وأفلاطون، ويزكيه التراث الشرقي الذي قدم نظريات في مسائل من صميم مباحث الفلسفة مثل الخير والشر والمصير الإنساني والوجود العام.

ب ـ من أجل الحياة:

إن تاريخ الفلسفة هو سجل حافل للكفاح العقلي من أجل الحياة ممثلة في حقائق الوجود الكبرى، ومكانة الإنسان في الكون حوله، ومناهج المسيرة البشرية نحو السعادة.

ذلك هو هدف الفلسفة الذي عبرت عنه مذاهبها في صيغ مختلفة.

فالمدارس الطبيعية الأولى بدأت تفكر في المادة التي يتألف منها الوجود ورأت أن الأصل الذي صدرت عنه هو الماء أو الهواء أو النار أو العناصر الأربعة أو العدد أو الجوهر الفرد.. إلخ.

واستمرت تُجادل حتى جاء سقراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ق.م) فأنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، ووجهها وجهة إنسانية تحاور في الأخلاق وتعنى بفضائل النفس الإنسانية.

وتبعه أفلاطون الذي نادى بعالم المُثل في السماء وجمهورية الفلاسفة الملوك على الأرض.

واستمرت الفلسفة اليونانية قائمة على يدي أرسطو صاحب التعريف المشهور بأن «الإنسان حيوان مدني»، والعبارة الشائعة بأن «من يعيش بلا دولة إمّا أن يكون بهيمة أو إلهاً»!!.

واختتمت الفلسفة اليونانية قصتها بإبراز الجانب العملي من الحياة، والتماس مذاهب السعادة والطمأنينة النفسية كما تخيلها الرواقيون والأبيقوريون.

فإذا انتقلنا إلى فلسفة العصور الوسطى إسلامية كانت أو نصرانية وجدنا غايتها المُثلى متجلية في التوفيق بين نتائج الفكر العقلي وحقائق الوحي الإلهي.

وتلك غاية لها بالحياة سبب؛ لأن الإنسان المؤمن يتطلع إلى الوحدة الفكرية والهدوء العقلي الذي يحفظ عليه شخصيته الواحدة ويهيء له الاستقرار النفسي.

أما الفلسفة الحديثة فقد تعددت مذاهبها وأهدافها، وهي في كل ما نقضته أو أثبتته إنّما تدّعي لنفسها اتصال الفكر بالحياة والحفاظ على شرف النزعة العملية وتحرير العقل من قيود الوهم.

وقد نادى فرنسيس بيكون ـ أبو التجريبية الحديثة ـ (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) بتحطيم أوهام العقل وأعلى من شأن المنهج الاستقرائي، وأعتبر ديكارت ـ أبو الفلسفة الحديثة ـ (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) المعرفة الكاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته بالإضافة إلى تدبير حياته وصيانة صحته واستكشاف الفنون ـ تعريفاً للفلسفة، وما كانت مذاهب الوضعيين والماركسيين والبرجماتيين والوجوديين ـ بصرف النظر عن خطئهم أو صوابهم[1] ـ إلّا محاولات يقدمها الفكر الفلسفي على طريق المسيرة الطويلة من أجل الحياة.

وإن ننسى لا ننسى المشاركة الفعلية من جانب الفلاسفة على مدى العصور؛ فقد أعدم سقراط بتهمة إفساد شباب أثينا، ورحل أفلاطون إلى صقلية ليربي حاكمها الجديد «ديونيسيوس» الثاني على نمط الملوك الفلاسفة فلما فشل أنشأ الأكاديمية؛ ليُخرّج المشرعين والحكماء، وكان أرسطو أستاذاً للإسكندر المقدوني، وأصطفى الخليفة العباسي المعتصم فيلسوف العرب

(١) في الباب الثالث نجد دراسة وافية عن الماركسية في الميزان وتقييماً لفكر نيتشه.

«الكندي»؛ ليكون مؤدباً لابنه أحمد، واتصل فيلسوف المسلمين غير مدافع «الفارابي» بسيف الدولة الحمداني وشاركه في حملته على دمشق لتأديب أهلها، وتقلد الشيخ الرئيس «ابن سينا» الوزارة لشمس الدولة في همدان، وعيّن: فرنسيس بيكون مستشاراً فوق العادة للتاج البريطاني، وأمسكت الثورة الفرنسية بمؤلفات جان جاك روسو واعتبرتها إنجيلها. ومن جهة أخرى فإن الصراع الدائر في القرن العشرين قائم على تنازع فكري بين عقائد مختلفة ومذاهب متباينة ونظم متقابلة، فالحرب العالمية الأولى قامت على تخوف من المسألة الشرقية ولمحاولة القضاء على ما سُمِيّ بالرجل المريض بما يمثله من عقائد ونظم.

والحرب العالمية الثانية قادها هتلر تحت تأثير من فلسفة الإنسان الأعلى...

والحروب الإقليمية التي تدور رحاها في أرجاء متعددة من الكرة الأرضية يحركها فكر رأسمالي أو يثيرها فكر شيوعي.

جـ ـ المجتمع المثالي:

وعلى هذا الدرب حاول كل فيلسوف أن يقدم للبشر نظرية في العقيدة أو منهجاً في الأخلاق أو نظاماً للمجتمع أو دستوراً للدولة، وألقى كل منهم بدلوه، وأصبحت شؤون الحياة من أبرز مسائل الفلسفة، وأضحى الفكر السياسي والاجتماعي يمثل تراثاً ضخماً في إطار الفكر الفلسفي.

ولكن بعض الفلاسفة ـ على اختلاف عصورهم ـ قد نهض بعبء تقديم أنماط للمدن الفاضلة ونماذج للمجتمعات المثالية في محاولة لتحقيق أحلام البشر في إقامة الفردوس الأرضي.

والفرق بين أصحاب هذا الفكر «اليوتوبي» وغيرهم من الفلاسفة

أنهم أرباب فكر شمولي ينظر إلى الناس من خلال مجتمعاتهم كي يقوم بالإصلاح الكلي في جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بينما يقتصر غيرهم من الفلاسفة على مجرد إلقاء النصيحة في جانب خاص من الحياة يأتي عرضاً في مذهبهم الفلسفي.

ومن هنا فإن، المجتمع المثالي، في الفكر الفلسفي يمثل قمته وذروة سنامه وهو في نفس الأمر خلاصة وافية لفكر الفيلسوف، ووثيقة تاريخية هامة لعصره، وأحد أركان المسيرة الإنسانية نحو آمالها الكبرى، وإذا تتبعنا هذا الجانب من الفكر الفلسفي فسنجد ذخائر حية ورصيداً ضخماً. فهناك على سبيل المثال:

جمهورية أفلاطون واسطة عقد فلاسفة اليونان الكبار.

وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي الذي وصف بأنه المعلم الثاني وفيلسوف المسلمين غير مدافع.

وتزاحمت في الفلسفة الحديثة نماذج عدة وتصورات مختلفة تمثلت طلائعها في:

أ ـ مدينة الله، للقديس أوغسطين.
ب ـ الأمير، لماكيا فللي.
جـ ـ يوتوبيا، لتوماس مور.
د ـ أطلنطس الجديدة، لفرنسيس بيكون.

وقامت أركانها على:

١ ـ العقد الاجتماعي لجان جاك روسو واتخذته الثورة الفرنسية إنجيلاً لها.
٢ ـ المجتمع الشيوعي لكارل ماركس الذي استطاع أنصاره في غفلة من الحق ورجاله أن يؤسسوا دولة كبرى.
٣ ـ مجتمع العمالقة كما تصوره فردريك نيتشه صاحب نظرية

«السوبرمان»، التي أوحت للزعيم الألماني «هتلر»، أن يقود حرباً عالمية أهلكت الحرث والنسل.

* * *

وأحسبني - في غير حاجة - إلى تأكيد أن باحثاً يتصدى لهذا الجانب بالبحث والدراسة والتحقيق - لمتحمل تبعات جساماً، ومحقق فوائد جمة للعلم والفلسفة.

* * *